﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفى آية ثالثة يقول :

﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة إبراهيم)

لقد جاء بـ « الواو » هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقمة النعم . لكن : ﴿ إذ قال موسى لقومه اذكروا ﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فى الهم والحزن على من يستبقى من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن فى الخدمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

والثانى تفصيلى ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه فى سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

جاء بها هناك بالإجمال . ولكنه شاء هنا فى سورة الأعراف ألا يأتى بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمّها الحق بعشر أخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصّل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل فى خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتى بخبر الستة الأيام وهى مجملة . لكنه شاء سبحانه فى موضع آخر بالقرآن أن يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها فى ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾

(الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت) .

وهنا فى موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل فى ظاهر

الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هى ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه فى بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا فى الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه ـ سبحانه ـ سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، فى مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر أخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنفه ويشتد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة طه)

فكأن العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

وهنا يقول الحق فى سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

و « اخلفنى » أى كن خليفة لى فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التى تجمع بين موسى وهارون :

﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة طه)

لأن كلًّا منهما رسول ، وقول الحق : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التحنن ، أى أننى لى بك صلة قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتخلفنى . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معى فى الرسالة ، إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهيًا فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل علىّ بريح المسك فزد عشرة أيام ؛ حتى تأتى كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وهنا أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و« لا تتبع » هى نهى ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و« لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلّفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صالحين أيضاً للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يزيد فيه صلاحاً فليفعل . وقوله : ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ لأنه قول موجه لنبي وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكنَّ موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألاَّ يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بني إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده في منعهم وإنذارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه .

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(من الآية ٩٤ سورة طه)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

والميقات هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال ، ونسميه وقت العمل . وغلب على أشياء في الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظْرَف فيهما ، أي يكونان ظرفاً له ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أي غير ثابت ؛ فقد يأتي الصبح ويذهب ويأتي بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والمواقيت - إذن - إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالذى يتحكم فى الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث فى أى مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضاً الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس فى أى مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً . والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكانى ولكل أهل جهة ميقاتهم المكانى الذى يطلب منهم ألاّ يمروا عليه إلاّ وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى للميقات أو جاء فى الميقات ؟ لقد جاء فى الميقات ، واللام تأتى بمعنى « عند » . ونعلم أن « اللام » تأتى بمعنى « عند » كثيراً فى القرآن ، مثل قوله :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

أى أقم الصلاة عند دلوك الشمس أى عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقى الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق :

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة فى المعراج ، فكانت أول فريضة هى الظهر ، وكأن الحق يعنى خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقى الفجر ،

وجاء فيه : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع .

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وكلمه ربُّه ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال فى مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

وفى هذا نفى أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث : الوحى أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحى بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى فى قلب النبى دفعة ، مع العلم اليقينى بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحى الإلهامات ؛ مثل الوحى إلى أم موسى ، والوحى إلى الحواريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحى : التسخير ؛ كالوحى للأرض ، والنحل .

وبعد ذلك . . « أو من وراء حجاب » أى أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، « أو يرسل رسولاً » هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات .

وهنا فى كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه لله .

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها فى البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ،وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شىء يخص الله إنما نأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأعراف)

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد فى البشر ، ويوجد مثله . فى وصف الله مثل « استوى » ، و « جلس » و « وجه » ، و « يد » نأخذ كل ذلك فى إطار « ليس كمثله شىء » .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفائى ، وكأنه قال لنفسه : مادام قد كلمنى فقد أقدر أن أراه ؛ لأن استطابة الأنس تمد للنفس سبل الأمل فى الامتداد فى الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

كان الجواب يكفى أن يقول : « عصا » لكنه قال :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن

يطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال . ولله المثل الأعلي ـ نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرفت نفسه أن يراه : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ﴾ .

لم يقل موسى : أرنى ذاتك . بل قال : ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق . وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى فى الوحى والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله ؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق .

ضربنا المثل من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأى شىء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التى هى أقل منه أو تحطمه الأشياء التى هى أكثر صلابة منه ؛ وإن اصطدم بشىء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد ينكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان فى البيت شيئاً من النور الضئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما نسميه « الوناسة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود فى المنزل ؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتى لها بمحول يأخذ من القوى ويعطى الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذى لا يأخذ من القوى إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الواسطة من البشر اصطفاء ومن الملائكة اصطفاء ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطى مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطى المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطى الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين

تبرزون فى الآخرة وتعدون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

ولا يستوى الناس فى ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق . يقول تعالى فى شأن الكفار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يستوى المؤمن والكافر فى هذه الحالة ، فمادام الكافر محجوبا فالمؤمن غير محجوب ويرى ربّه . وقال موسى : ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ . قال الحق : ﴿ قال لن ترانى ﴾ .

وفى اللغة نجد أن « لن » تأتى تأبيدية ، أى تؤيد المستقبل أى لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ أن موسى لن يرى الله فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفى أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجىء « لن » فى قوله الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ تأبيدها إضافى ، أى بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه :

﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن ترانى ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتى انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن ترانى . إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من

الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدكّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوّى بشيء أسفل منه . والحق هو القائل :

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وهنا فى موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلّى عليه على هذا التجلى أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلى أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلى لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلّى عليه فكيف لو رأى المتجلّى ؟ !! ﴿ فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا ﴾ . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق فى آية قرآنية :

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة ص)

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماءة الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتى النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك ﴾ . وهذا يدل على أن الصعقة ليست هى الصعقة المميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : « فلان فاق

لنفسه » وهنا « أفاق » موسى على حاجتين اثنتين ، أفاق من الغشية التى حصلت له من الصعقة ، وكأنه تساءل : لماذا انصعقت ؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك ﴾ ، وساعة تسمع كلمة « سبحانك » اعرف أنه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذى نحن بصدده وهو رؤيته ـ تعالى ـ أى تنزيها لك يارب أن يراك مخلوقك ؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئى ، ومعنى: « رأيت الشىء » أى أن عين البشر قد قدرت على الشىء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعنى أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ؛ لأن المقدور لا ينقلب قادراً ، والقادر لا ينقلب مقدوراً .

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون ، وأنَّ ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التى يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا يبذل مجهود ؟ .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، أى بأنّ ذاتك ـ سبحانك ـ لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له : لا تلتفت إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك :

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : ﴿ اصطفيتك على الناس ﴾ تعبير

فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد فى دائرة الاصطفاء البشرى : ﴿ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة آل عمران)

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء فى رسالة ومعها شىء زائد ، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثانى قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر فى هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : ﴿ اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ .

وعرفنا من قبل أن « رسالاتى » هى فى مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة فى النزول ، فكأن كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهى رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) ﴾

(سورة الأعراف)

أى لا تنظر إلى ما منعتك ، بل اذكر أنى اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لى هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقى له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفائل ينظر إلى الكوب الذى نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب ملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، وبرغم أن كُلًّا منهما

يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقى من نعم الله .

إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموى فى دمشق وجرحت رجله فى أثناء السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أى دواء تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أغفل عن ربى لحظة عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها . فأحضروها له وأمسك بها وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء .

هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أُخذ منه ، بل ينظر إلى ما بقى له . وكذلك، كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

والكتْب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى شىء ، وعندما يقول ربنا : ﴿ وكتبنا ﴾ فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن رسله من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يس)

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًا لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوحاً .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ من كل شيء ﴾ يعني : من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان فى الأرض فى الوقت المناسب له ؛ فالرسل تأتى بعقيدة ، لكن قد يأتى تشريع مناسب للفترة الزمنية التى جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتى من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعنى ألَّا تنشىء حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذى لا يُنشىء مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة ﴾ أى أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتى بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التى فى الألواح بقوة . ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهى نهيا قد يكون هذا النهى مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهى أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان فى هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتيبة التى

تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجه مما ألف ، ولابد له أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليواجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن ـ إذن ـ أن يأخذ التكاليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطى متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطى للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله فى النفع . إذن لابد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك فى المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أيحدد المنهج حريتى ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدى عليك آخرون ؛ فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب فى هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما فى الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهى « حسن » ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريماً له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله فى القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترقيات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة فى حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز . كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ،ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع . لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع فى أعراض الناس وانتهاك حرماتهم ، وحب الاستطلاع غريزة ، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود . لكن لا يصح ولا ينبغى أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستذلالى .

إن للإنسان غرائز يعليها الشرع ؛ أمَّا الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحبب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلم من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة حين قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

فقال عمر : كيف ؟ .

وكررها رسول الله فعلم عمر ـ رضى الله عنه ـ بفطرته أن ذلك أمر تكليفى . وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلى . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حبًّا عقليًّا ، وقد يتسامى إلى أن يصير حبًّا عاطفيًّا . والإنسان منا ـ كما قلنا سابقاً ـ يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتى له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلى . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما مرّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عنى فأنا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية : أوعدم حبك لى يمنعنى حقًّا من حقوقى ؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والحق يقول هنا : ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ فمثلاً ، حين يُقتَل إنسان فلولى الدم أن يقتص ، لكن الحق يحنن قلب ولى الدم على القاتل فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدىء من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجىء أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك فى المرض ؟ وممن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انفعالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ماأصابك ﴾ أى مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ؛ لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

يعنى إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ؛ لأن الإنسان إذا روّض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسىء إليه ، فعليك أن تراعى فى ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه :

﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

ولكن مَن منا يتصف بالدقة فى الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذى فى صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة . إذن لماذا تدخل نفسك فى متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهى الأمر ؟

وحين يدللك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهى شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسانٌ إنسانا آخرَ ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا ولىّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من ولىّ الدم فيستحى القاتل ـ بعد ذلك ـ أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد ولىّ الدم أو من ينسب إلى ولىّ الدم ، وحينذاك تنتهى أى ضغينة أو رغبة فى الثأر ، ولذلك نجد البلاد التى تحدث فيها الثأرات وتستشرى فيها عادة الأخذ بالثأر ـ مثل صعيد مصر ـ نجد القاتل إذا ما أخذ كفنه على يده ودخل على ولىّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه ولىّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من ولىّ الدم ، وتصفى الثأرات وتنتهى . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ . ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفى الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

اقترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهوعكس السؤال الذى قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشىء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرِض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حَسَن وهناك أحسن ، الحَسَن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة فى سيدنا الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ الذى أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله فى جانبنا » . ودائماً أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أسىء إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؛ نجد رب الخلق مع من أسىء إليه ، وعلى من أسىء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذى أساء إلى قد جعل ربنا فى جانبى ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الزمر)

وفى آية ثانية يقول الحق :

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزمر)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

ودار الفاسقين هى النار ، وكأن الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتى سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبنى إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكأن الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ معناه حملهم على ما فى الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسقين ﴾ هى المدائن التى دمّرت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها فى الغدو والرواح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

والآيات جمع آية وهى الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول فى البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار فى آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق سيبطل كيدهم فى أن يتجهوا للحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .